بين الشرق والغرب

عقلية استنتاجية فى الأول

تقابلها عقلية استقرائية فى الثانى

يمضى كثير من المفكرين فى أبحاث مستفيضة تتناول الاسباب التي قعدت بالشرق وصدته عن اللحاق بالغرب فى تطوره نحو المثل العليا . حتى لقد تساءل بعض الكتاب أمن فروق فزيولوجية تفرق بين الناس فى الشرق والغرب ؟

والآراء فى هذا الموضوع كثيرة متضاربة . فقد نظر البعض فى الاسباب التى صدت النصرانية ، وهى ديانة شرقية اسيوية ، عن أن تؤثر فى جو روما المدنى ، وهو جو امتزج فيه الروح الاغريقى بالنفسية الرومانية ، فتخلق من أهل الغرب أماشيبهة بالامم الاسيوية تستعبدها الآخرة وتستذلها كما استذلت البوذية أهل الهند والزرادشتية أهل فارس والاسلام كثيراً من مختلف أمم المشرق ، فذهبوا الى القول بأن السبب فى ذلك راجع الى أن فى الامم الاسيوية مدنيات امتصتها الاديان ، وفى الغرب دين امتصته المدنية . وعزوا الى هذا الامر وحده السبب فى تفوق الغرب على الشرق . على أن نظرة تأمل واحدة تزودنا بكثير من الاسباب التى تجعلنا نرفض الاخذ بهذا القول على أنه استقراء صحيح لطبيعة الحوادث .

حقيقة أن المدنية الرومانية قد رفضت الكثير من تعاليم النصرانية ، غير أن تعاليم النصرانية ، بل والاكثرية الكبرى من هذه التعاليم ، قد أثرت فى الغرب أثرها المحتوم فى خلال القرون العشرة الاولى من تاريخ النصرانية فى أوروبا . فالانصراف الى الآخرة دون الدنيا ، و « الدروشة » الكاملة التى انتحلتها الكنائس و الفضائح العظمى التى ينضوى عليها تاريخ البابوية ، كل هذه فيها من الروح الاسيوية قدر كبير ؛ بل لانبالغ اذا قلنا انها مظاهر الروح الاسيوى فى المدنية الرومانية القديمة . غير أننا نجد بجانب هذا اخطاء واغاليط مادية كانت سببا فى تنبيه الاذهان الى الرجوع الى الدنيا دون الانصراف الى الآخرة أولا وآخراً . فان التبشير الكنسى بان القرن العاشر هو نهاية العالم وتقبل الناس

لهذا التبشير المحدود بالمكان والزمان، ثم جرى الفلك على ما كان في أوائل القرن الحادي عشر ، كان في الواقع أبرشي. نبه الاذهان الى أن الحياة الارضية جديرة بالسعي خليقة بان تحترم و أن تأخذ نصيبها من الدنيا . والواقع يدلنا على أن هذه الاغاليط المادية ، كانت السبب في قيام حركة الاصلاح البروتستانتي ، لاسيما اذا أضفنا اليها عدة اغاليط تشابهها كبيع الغفرانات وبيع دم المسيح واحتكار اللغة اللاتينية للعلم والدين والآداب في شعوب تشعر بالكثير من العزة القومية .

هذا من الناحية الاستنتاجية الصرفة . أما من الناحية العملية فقد قال البعض إن الفرق بين الشرق والغرب راجع الى أسباب مادية كطبيعة البلاد والمناخ الى غير ذلك من النظريات التي أخذت عن العلامة « بوكل » الانجليزي .

أما السبب الأكبر الذي أراه في تعليل الامر فيرجع الى عكوف الشرق على منطق انصرف عنه أهل الغرب الى منطق يناقضه .

لقد ورث الشرق عن القدماء منطق أرسطوطاليس الاستنتاجي الصرف —Deduction— وهو منطق يرجع الى العقل وحده دون الرجوع الى مشاهدة أو اختبار ، في حين أن الغرب قد خلق منطقاً جديداً هو المنطق الاستقرائي الذي اتبعه غاليليو وكوبرنيكوس وكبلر وجوردانو برونو وديكارت ثم هذبه باكون بقضاياه المعروفة في كتابه « المنطق الجديد » —Novum Organum— ثم جاء من بعد ذلك « الحكيم الكلي الحكمة » — هيوويل الايقوسي — فوضعه على الأساس الحديث المأخوذ به حتى اليوم في ترتيب المعارف الانسانية . ذلك هو المنطق الاستقرائي — Induction — وأساسه المشاهدة والاختبار .

بهذا تميز العلم وتحدد وبهذا استطاع الغرب أن يخطو في طريق لم يعرفه الشرق بعد . هذا عندي هو السبب الحقيقي فيما بين الشرق والغرب من فرق، وهو سبب محصور في تكوين « العقلية » — وهي من الأشياء التي يمكن الحصول عليها بالدربة والمران .

واليك بعض القواعد التجريبية التي وضعها « هيوويل » . ننقلها عن كتاب بدأنا في وضعه لم فيه بتاريخ المنطق الجديد وطرقه وأسسه والنتائج التي يؤدي اليها .

(١) الانسان معلل الطبيعة ، والعلم هو التعليل الصحيح

(٢) الحواس تعرض لنا الصفات الكامنة في كتاب الطبيعة . ولكن هذه

الصفات لا تنقل الينا معرفة ما ، قبل أن نستكشف « الأبجدية » التي نقرأ بها ذلك الكتاب .

(٣) إن الأبجدية التى تفسر بها الظاهرات الطبيعية ، انما تتكون من الفكرات الموجودة (أو المستقرة) فى عقولنا . لأن هذه (الفكرات) هى التى تزود الظاهرات بصفتى المطابقة و الخطورة اللتين هما من موضوع العقل ، لا من موضوع الحس .

(٤) إن التناقض الواقع بين الحس والفكرات ، هو أساس فلسفة العلوم ، بيد أن هذين العنصرين ضروريان بحيث لا يمكن أن توجد « معرفة » بدون اتحادهما ، ولا فلسفة بدون انفصالها .

(٥) الحقيقة الكلية و « النظرية » تقابلان « الحس » من جهة و « الفكرات من جهة أخرى ، مادمنا « على وعى » من فكراتنا . ولكن كل الحقائق ، كلية » وجزئية ، تتضمن فكرات على غير وعى منا . وبذا لا يكون التفريق بين الحقائق والنظريات من الطواعية ، بقدر ما هو بين الحس و الفكرات .

(٦) الاحساسات والفكرات فى معرفتنا ، كمثل المادة والصورة فى الاجسام . فالمادة لا يمكن أن توجد من غير صورة ، والصورة لا توجد من غير مادة . ومع هذا فالاثنان (المادة والصورة) معينتان متقابلتان تماماً . ولكن ليس فى الامكان فصلهما ولا ادماجهما . وكذلك الحال فى الاحساسات والفكرات .

(٧) الفكرات احساسات « مكيفة » ، لاحساسات مهوشة . لأنه بغير الفكرات لا يكون للاحساسات صورة .

(٨) الاحساسات هى الجزء « الموضوعى » objective ، كما أن الفكرات هى الجزء الذاتى Subjective ، فى كل فعل من أفعال الادراك أو المعرفة .

(٩) تدل الاصطلاحات العامة على مدركات تخيلية كدائرة أو فلك سيار أو وردة . هذه الاشياء ليست أشباحا لاشياء حقيقية ، كما كان يعتقد « الواقعيون » Realists التصورات . غير انها تصورات لا يربط بينها مجرد « اسم » كما كان يعتقد « الاسميون » Nomenalists - بل تربط بينها « فكرة » .

(١٠) قال البعض : أن كل التصورات ليست الا مجرد حالات أو مشاعر مرجعها

العقل . غير أن هذا القول يؤدى الى « المزج » بين مايجب علينا تفريقه .

(١١) لكى ينتج عن الحقائق الكلية المشاهدة ، حقائق جزئية جديدة ، يتحتم أن يربط بين الحقائق الكلية بفكرة تزاد اليها . وبالاستقراء نحصل على مثل هذه الحقائق (الجزئية) .

(١٢) الحقائق الجزئية ، اذا حصل عليها بالاستقراء الصحيح ، تكون حقائق كلية . وهذه الحقائق الكلية يمكن أن يربط بينها مرة أخرى على صورة تنتج معها حقائق جزئية أرقى من سابقتها . وبهذا تتقدم صوب التعميمات المتلاحقة .

(١٣) تكسب الحقائق التي نحصل عليها بالاستقراء ، صفتي البقاء والاستمرار ، بأن يعبر عنها باصطلاحات علمية .

(١٤) التجربة لا يمكن أن توجهنا الى حيث نعثر على الحقائق الكلية ، ولا على الحقائق الضرورية . أما انها لا توجهنا الى حيث نعثر على الحقائق الكلية . فذلك لان التجربة (الانسانية) لم تسع كل الحالات الطبيعية . وأما من حيث الحقائق الضرورية ، فلأن « الضروريات » ليست من الاشياء التى يمكن أن تخضع للتجربة ان تمتحنها لتعرف مقدار الحق فيها .

(١٥) تستمد الحقائق الضرورية صفة « الضرورة » من الفكرات التى تتضمنها ، ووجود الحقائق الضرورية برهان على وجود فكرات ، ليست التجربة منشؤها .

(١٦) فى التفكير الاستنتاجى Inductive لا نستطيع أن نحصل فى النتيجة على حقيقة ، لم تتضمنها المقدمات مبدئياً

(١٧) العلوم التى تعتمد فى وجودها على فكرتى الزمان والعدد هى علوم مجردة لا علوم استقرائية . أنها لا تخرج نظريات خاصة من حقائق كلية . بل تستنتج النظريات من الفكرات . أما العلوم المجردة الأولية — وبالأحرى الرياضيات المبدئية — فهى الهندسة والحساب النظرى والجبر .

(١٨) الفكرتان اللتان تعتمد عليهما العلوم المجردة هما فكرتا المكان والعدد . غير أن العدد عبارة عن تكييف مستمد من تصور التكرار ، الذى هو تابع لفكرة الزمان

(١٩) أن فكرة المكان لا تستمد من التجاريب ، لان تجاريب الاشياء الخارجية تفرض بدءا وجود اجسام فى المكان . ان المكان ليس سوى حالة يتقبل العقل تحت تأثيرها منقولات الحواس . وبذلك تصح علاقات المكان ، ضرورة وعلى وجه عام ، على كل الاشياء المدركة بالحواس . إن المكان صورة من مدركاتنا الحسية ،

وهو فوق ذلك ينظم هذه المدركات ، بصرف النظر عن المادة التى تتكون منها (هذه المدركات)

(٢٠) المكان ليس تصورا عاما جمعت أجزاؤه مقتطعة من حالات خاصة . لاننا لانتكلم فى أمكنة على وجه عام ، بل فى مكان عام «مطلق» والمكان المطلق غير محدود . كل الامكنة الخاصة انما يتضمنها المكان « المطلق » وماهى الا أجزاؤه .

(٢١) ليس المكان بشىء او موضوع حقيقى ، معين او منفصل عن الاشياء التى توجد فيه . ولكنه حالة حقيقية يخلقها وجود الاشياء او الموضوعات الخارجية

(٢٢) فينا احساسات بالاشياء الموجودة فى المكان . أى أننا « نفكر » فى أن الاشياء مكونة من أجزاء خاصة ، وندرك علاقاتها المكانية بنفس الفعل الذى ندرك به الاشياء ذاتها

(٢٣) الصورة أو الهيأة عبارة عن مكان محدود بحدود معروفة . وللمكان بالضرورة أبعاد أو امتدادات ، الطول والعرض والعمق . وليس من أبعاد أخرى يمكن أن لا توجد في هذه الابعاد .

(٢٤) تحقيقاً لاغراض « العلم » نستعرض فكرة المكان بتعاريف وقضايا أولية وضعت فى علم الهندسة . ومثلها ـ تعريف الزاوية القائمة ، أو تعريف الدائرة ، أو تعريف الخطوط المتوازية ، أو القضايا الاولية الخاصة بها ـ ومثل القضية الاولى فى أن الخطين المتوازيين لايحدان مكانا . وهذه التعاريف ضرورية الاختيارية . والحاجة الى القضايا الاولية كالحاجة الى التعاريف ، من أجل أن نعبر عن الحالات التى تعرضها علينا فكرة المكان

(٢٥) إن التعاريف والقضايا الاولية الموضوعة فى علم الهندسة المبدئى ، تعرض لنا بوضوح فكرة المكان . فاذا تقدمنا الى الهندسة العليا ، فاننا نستطيع أن نضيف قضايا أولية أخرى مستقلة عن التعاريف والقضايا التى يمدنا بها علم الهندسة المبدئى . ومثلنا قضية ارخميدس فى أن الخط المنحنى الذى يصل بين نقطتين ، يكون أقل طولا من أى خط منكسر يصل بين النقطتين مارا بالخط المنحنى .

هذه صورة نعرضها من المنطق الاستقرائى الحديث . وهو منطق الحياة الغربية التى تستمد منه مكونات العقلية الحديثة . ولاجرم أن الشرق فى مستطاعه أن يتحول هذه العقلية ليجارى الغرب من مضمار الحضارة بطرفيها ، تثقيفا وعمليا ، اذا أكب أهله على تفهم هذا المنطق واستيعابه ليكون للمعرفة أساساً تقوم عليه .